

مؤمن ديرانية رحمة الله.. أبي الذي رحل

الكاتب : مؤمن مؤمن ديرانية

التاريخ : 24 أغسطس 2013 م

المشاهدات : 11188



شهر مضى على رحيلك يا أبي..

في ليلة جمعة مباركة.. ليلة السابع عشر من رمضان المبارك.. اختار الله أبي إلى جواره..

حملت القلم أكتب شيئاً لأبي.. فحشرج القلم.. عدت إليه ثانية، فحشرج ثانية..

كتبت هذه الكلمات على جلسات كثيرة.. بمداد تحالطه دموع..

كلما وجدت خلوة معه أكتب له كلمة.. ثم أرجئ الكلمة الأخرى لوقت آخر..

تختنق الكلمات في كل مرة.. وأعاودها ثانية فتختنق من جديد..

هو الحديث الحلو المر.. يتراوح بين حلاوة الذكرى وأنسها، ومرارة الفقد وألمه..

أدركت اليوم أنني لم أكن أعرف كيف يكون فقد الأب.. مهما بلغ الأب من العمر ومهما بلغ الابن..

هي الحياة.. والقدر الذي لا يردد.. والحديث الذي لم يكتمل..

* * * *

مات أبي.. لا يقولها صبي يتيم يبحث عن مأوى، بل رجل في العقد السادس من العمر يستعد للقاء أبيه ثانية، بعد حين يعلمه الله، لكن القلب لا يملك إلا أن يحس باليتيم لفقد الأب مهما بلغ من العمر..

الأب جدار يستند إليه أبناءه حتى وهو يتکئ عليهم في مشيه، وسقف يظلهم حتى وهو لا يكاد يقدر على حمل المصحف الذي يتلو منه..

وهو التاريخ الذي يخافون أن يفقوه.. والبوصلة التي يجدون فيها الطمأنينة في خطواتهم التي يخطونها، في كلمة من شفتيه أو نظرة رضا في عينيه..

الأب والأم هما الإنسانان اللذان لا يستطيع ابن أن لا يفتدهما، ولا يقدر ابن أن يوفيهما حقهما مهما فعل ومهما بذل، لا يقدر أبداً..

من الله على أن أراه قبل نحو أسبوع من وفاته، وودعته على موعد مع لقاء آخر قريب، فشاء الله أن يكون ذلك اللقاء هو لقاء الوداع..

ليتني عرفت أنه لقاء الوداع، لكنت حاولت أن أرتوى أكثر من لقائه وسماع صوته والنظر في عينيه.. تقتلني الحسرة..

* * * *

بعد ستة أيام من ذلك اللقاء الأخير أعود لأنني نظره الوداع عليه ميتاً، وأعانقه وأقبل يديه ووجنتيه، وأكلمه فلا يجيب.. وأعود فأكلمه ثانية.. ولا يجيب.. فأعانقه وأقبل يديه من جديد..

وأغسله كما غسلني صغيراً.. وأحمله إلى قبره كما حملني صغيراً.. وأنزله في قبره.. أستودعه الرحمن الرحيم، وأسأله أن يثبته بالقول الثابت وينير له قبره ويجعله روضة من رياض الجنة..

ونعود أدراجنا ونتركه هناك.. مبتهلين إلى الله أن يؤنس وحشته وبيبله داراً خيراً من هذه الدار الفانية..

أزوره من بعد.. في ذلك القبر تارة، وفي غرفته التي تركها تارة أخرى، أنظر إلى كرسيه وطاولته وأدويته وحاجاته المتناثرة، وأوراقه وكتبه المصفوفة على رفوف خزانة خشبية خلفه، وشاشة أمامه صمتت الآن.. صمتت أخيراً بعد أن صدعت عالياً لزمن طويل بأخبار المسلمين التي لم يتوقف يوماً عن متابعتها..

كلها تکاد تئن اشتياقاً إليه مع اشتياقي، وتذرف الدموع مع دموعي..

ويمرّ أمام عيني شريط طويل، أرى فيه حياة طويلة حافلة، رأيت وعشت شقاً طويلاً منها، وسمعت من شفتيه الشق الذي سبق، وكلا الشقين عزيز على حبيب إلى قلبي..

* * * *

من صبيٍّ يتيم الأب.. يبدأ يومه بحمل طبق عجين ثقيل فوق رأسه، يتمايل وهو يمشي به إلى الفرن كل صباح، قبل أن يجلس على مقعد المدرسة العسليّة الابتدائية في عمان..

إلى طالب في ثانوية عمان يتم فيها الصف السادس والسابع، ثم يتوقف عن الدراسة في غياب الأب الذي يوجهه ويرعايه. لكن خريج الصف السابع الابتدائيقرأ في حياته أكثر مما يقرأ اليوم طلاب الجامعات، وكان عظيماً في ثقافته واطلاعه ومتابعته لكل مايدور..

إلى عامل سكب مسودة اليدين يعمل في مسكب صغير في مهنة شاقة..

إلى قائد جوالة الإخوان المسلمين في عمان.. ينتقل معهم من بقعة إلى أخرى في رتل شباب يحملون همة كبيرة وآمالاً

إلى صاحب قلم شاب نشر باسم "رامز حسون" مقالات متفرقة، ثم احتجب قلمه طويلاً في زحمة الحياة وهمومها والتجارة وأعبائها، إلى أن عاد للكتابة بعد تقاعده في السنوات الأخيرة.

لم يستطع قلمه في هذه السن المتقدمة أن يختلف عن المشاركة في مسيرة الحرية التي مشتها أمتنا منذ عامين ونصف، فكتب فيها العديد من الخواطر. (العلي أجمع كتاباته قريراً بإذن الله).

إلى شاب متألق على ظهر سفينه مهاجرة إلى العالم الجديد آذاك، يعود بعد شهور وقد عزف عن فكرة الهجرة، ليلقى أمّه قبل أن ترحل، وتلتفظ آخر أنفاسها وهي تدعو لابنها الأصغر ولذرته بال توفيق والصلاح، ويعيش عمره يتذكر دعواتها ويحس ببركة هذه الدعوات..

كم حدثنا عن دعوات أمّه له، وكم كان سعيداً بهذه الدعوات التي فتحت له أبواب الخير.

إلى تاجر عمّان المرموق الذي وعيت عليه، يصطحب ولده الأول الصغير مؤمن إلى دكانه، ومن بعد ابنه الشاب في جولاته في السوق من تاجر إلى آخر، وفي غرفة مكتبه الذي كثيراً ما قضيت فيه الساعات الطوال، أساعده في عمله وأجالسه وأستمع إليه وزائره، وأتعلم منهم الكثير.

وأرفقه في كثير من زياراته لفضلاء عمّان.. عرفت طويلاً إخوانه وأصحابه الذي صاروا يرحلون واحداً بعد آخر.. أبحث اليوم عن تبقى من أحبابه أتقرّب إليهم على أجد بذلك قرباً منه بعد رحيله.

وآخرون من أهل الفضل يأتون من بلاد شتى و يجعلون من محل أبي محظتهم فيعمان، من سوريا ولبنان ومصر والعراق وال سعودية والكويت وتركيا وأوروبا وأمريكا، كان يجند نفسه لهؤلاء الإخوة في زيارتهم يكرّمهم ويرافقهم ويساعدون في إنجاز أعمالهم.

إلى الحاج مأمون، كما صار اسم أبي بعد أدائنا فريضة الحج عام 1965 ولـي من العمر تسع سنوات. ورحلات عمل يعمل فيها بتجارته ويحمل عائلته معه في نفس الوقت، كرحلات القدس الأسبوعية قبل أن تقع في يد اليهود، نصلي الجمعة في الأقصى ثم يكمل عمله في الضفة الغربية، ورحلات بيروت، وفي كل بلد ينزل فيه له فيه إخوان وأحباب. في تجارته كان تاجراً كريماً متسامحاً مع كل حبيب و قريب و فقير، حتى وصفوه أنه ليس بتاجر، أحببت ذلك فيه وأعتز به كثيراً أكثر من اعتزازي بلقب شيخ التجار لو أعطوه له.

وكما يعيش التجار عشنا أوقاتاً من ضيق الحال، لكنها لم تغيرة وبقي على طريقته.

ولقاءاتنا العائلية الأسبوعية مع عمي أحمد الذي كان أحب الذّي كان أحب وأقرب إخوة أبي إليه، وسفراتنا المكوكية المتتابعة إلى دمشق نلقى فيها جدي وخالاتي وكبار العائلة، وصيفنا الحافل في الشام. رحل اليوم أكثر هؤلاء عليهم رحمة الله. عاش قارئاً متابعاً أخبار الأمة ومتفاعلاً معها. وفي قراءاته لا يغفل عما يهمّ ويفيد كل ابن من أبنائه ويحفظ لكل واحد نصبيه، فيجمع لي قصاصات الصحف عن الشؤون الطبية أو قضايا اللغة العربية التي يعرف اهتمامي بها، ويتبع البرامج الإخبارية والفكرية ويهافتني جميعاً لشاهد خبراً أو حديثاً أو برنامجاً مهمّاً.

وفي سنواته الأخيرة بعد تقاعده من العمل عاش مع قناة الجزيرة وأخبار الأمة التي يتبعها على مدار الساعة، لا يكلّ منها ولا يملّ، ويحدث بها أولاده وأحفاده وأصحابه وزائره، ويملؤهم أملًا بالفرح القريب.

كلّ ما أنا فيه من خير فبفضل أبي وأمي. حاولت أن أوفي أبي شيئاً من حقّه لكن هيبات أن أقدر.. ورحل قبل أن أوفيء شيئاً من حقّه..

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوفِيهِ حَقّهُ وَيُؤْتِيهِ مِنْ فَضْلِهِ..

ربانا أبي رحمه الله على الدين والفضيلة ومكارم الأخلاق. وكان مدرسة في الكرم والشهامة لا ينافسه فيها أحد. وعلمنا الانتماء للأمة، عاش معنا أحداثها وعلمنا كيف نعيشها، وعشنا معًا حروب اليهود المعتدين، قبل أن يصلحهم زعماء بلادنا ويلغوا المقاطعة معهم.

نشأنا على مقاطعتهم ورفض مصالحتهم والاستمرار في عدائهم. وعلمنا حب المسلمين والانشغال بهمومهم في وقت كان فيه هذا الحديث حديثاً منكراً.

بكينا الشهداء الذين علّقهم عبد الناصر، إمام الطغاة، على أعواد المشانق، عندما كان الناس حولنا يتشفّون بهم أو لا يكترون على الأقل.

وكانت قلوبنا مع كل محن المسلمين في كل بلد يذكر فيه اسم الله. أذكر حرب انفصال باكستان الشرقية "البنغال" المؤلمة التي تابعناها مع أبي يوماً بيوم، وأصحابي في المدرسة يرون في إنسانا غريب الأطوار يشغل نفسه بأمر باكستان الشرقية..

علمنا في أحسن المدارس، في الكلية العلمية الإسلامية، حتى في أوقات الضيق ونحن آخر التلاميذ تسليةً للأقسام الدراسية لم يتنازل عن ذلك، أراد لنا أن نسلك طريق العلم الذي حرم من إكماله. وأحب أن تكون طبيباً فكنت، ووجدت من بركة ذلك.

وتعلمنا منه حرفة اليد، كان يشتغل بإصلاحات البيت بيده، التجارة والسباكه وأعمال الكهرباء، ساعدها في ذلك وتعلمها منه، فكنا نشتري ألواح الخشب ونقطعها ونصنع خزائن الكتب بأيدينا، وتبعته في ذلك بعد أن كبرت فكنت أشتغل بيدي تمديدات بيتي الكهربائية والصحية في كل بيت سكنته، إلى أن ضاق وقتني وقللت همتني مؤخراً.

علمنا الإتقان حتى المبالغة، والاحتياط حتى الوسوسة، وحمل المسؤولية ودقة الحساب، لا يحب التسيب والفووضى ولا يقبل اللامبالاة.

وعلمنا الفن والجمال والإبداع. كان يتقدّم فيما يصنعه كأنه يصنع تحفة، وعندما بنى بيته وضع فيه تصميمات وترزيينات بدعة رغم بساطتها، لا يعمل مثلها المهندسون المعماريون..

نمسي اليوم في الحديقة نتأمل هذه الروائع، نكاد نرى يديه ممسكة بكل واحدة منها.

كان غضوباً وعصبياً المزاج، لكن كلّ من عرفه عن قرب وجد عنده قلباً من ذهب. كان حبه يفوق غضبه وسرعان ما يهدأ ويطيب الخواطر، نحس بالحب والرحمة حتى بين كلماته الغاضبة الهادرة.

وعاش حياة يختلط فيها النظام بالفووضى، كان منضبطاً في أمور لا يتنازل عنها، فلا يتأخر عن وقت سفر أو موعد هام ولا يضيع وثيقة ولا غرضاً مهماً أبداً، أما في الأمور التي تحتمل التساهل والتأجيل فكان كثير التسويف والتأجيل. علمنا النظام في الشق الأول وكراهه لنا الشق الآخر.

أما التفاؤل الذي حمله أبي عمره كله فلم أجده أبداً مثله عند أحد من الناس، ملأ قلبه وعقله ولم يفارقه حتى في أحلك الظروف، وهو الأمر الذي أحب أن أحنو حنوه فيه فلا أستطيع مجاراته.

كان متفائلاً دوماً وهو يمر في أصعب أوقات عمله وتجارته ومتربقاً دائمًا الفرج من السماء، ولقي ربه - رحمة الله -. وهو يتبع جهاد سوريا ساعة بساعة وهو واثق بنصر الله، ويتابع المرابطين في ميدان رابعة العدوية كل يوم وواثق أن الله سيؤيدهم بنصره.

لا ينسى أحداً من أهله وذريته وإخوانه، لا ينام كل ليلة إلا بعد أن يدعو لأمي وكل أبنائي وعائلاتهم، وأبيه وأمه وإخوته وأقربائه

الذين مضوا، ومن يذكر من إخوانه وأحبابه الذي لقوا ربهم.

أطلب رضاه فيرضى عنِي وعنِ إخوتي، ويحدثني عن ورد دعائِه اليومي لكل عائلته وإخوانه، فأطمع بأكثُر وأسأله أن يرضي عنِي من أعماق قلبه، ولا يبخل عليَّ بذلك ويضحك ويقول: الله يرضي عنك من أعماق قلبي. عليه رحمة الله. أحبَّ الكبير والصغير وكلَّ من عرفه، حتى الذين أصابهم شيء من غضبه في أوقات غضبه، وبكاه الأبناء والأحفاد والأصحاب والجيران.

أسعدني أن أجد عند أحفاده كل هذا الحب، وهو يستحقه.
علمنا أبي كثيراً من دروس الحياة.. في كل يوم أتذكر أمراً تعلمته منه.
وبقيت أحب أن أسمع رأيه في كل ما أعمله وفي كل كلمة أكتبها حتى آخر يوم من حياته رحمه الله.

* * * *

وتستمر الحياة.. بين أقدار الله..
ونمضي نحمل ذكرياتنا، وعزائمنا، وآمالنا..
ودعواتنا بالرحمة لآبائنا، والصلاح لأولادنا، وحسن الخاتمة..
ونردد: "رب اغفر لي ولوالدي رب ارحمهما كما ربياني صغيراً.."
وأقول لأبي ما قاله قبل أيام الرجل المجاهد محمد البلتاجي لابنته الشهيدة: لا أقول وداعاً بل إلى اللقاء..

المصادر: